اثنتا عشرة قصيدة في رحاب الحسين (ع) شعر محمد مهدي بحر العلوم دراسة تحليلية

أ.م.د .حافظ محمد عباس الشمري
الجامعة المستصرية– كلية التربية الأساسية

ملخص البحث

إنّ الأدب لا يمكن أن ينفصل عن الفكر المعرفي , وهذا الأمر واضح لما له من أبعاد مهمة في تاريخ المجتمع , فقد دخل الشعر في سجل محافل الحياة ؛ لأنه المعبر عن الواقع الاجتماعي .

فالشعر يعد مسؤولية ورسالة تقع على عاتق الشعراء , التي من خلالها يدعون إلى الفضيلة ومكارم الأخلاق , التي تحمل في طياتها شحذ الهمم والإيثار لدفع المجتمع نحو الرقي . كون الشعر يعد الوسيلة الأساسية في نقل العواطف والأحاسيس إلى المتلقي .

لقد امتلك الشاعر محمد مهدي بحر العلوم ذائقة أدبية وموهبة في رسم الكلمات , فضلاً عن حسه الثاقب وقدرته الأدبية العالية , التي جعلت من مزاجه الشعري يميل إلى التأمل.

لقد انطلق الشاعر من جراح الحسين (ع) التي وقف وراءها الصابرون , فهي الصورة التي كتبت في امتزاج الشاعر بعالم الأحاسيس والذوبان في حياة الآخرين التي رفدها من حلقات أفكاره المتألقة .

لقد عرف حقاً أنّ الروح التي دفعته إلى كتابة الشعر استلهمها من رحاب الحسين (ع) لتظل مناراً يتألق بها الجميع . كونها تحمل قيم ومفاهيم أدبية رائعة , تركت صورها تشع إلى يومنا هذا .

إنّ الشاعر محمد مهدي بحر العلوم زعيم الحوزة العلمية ورئيسها آن ذاك وصاحب المقامات العالية , وعلى هذا فان كلمته هي الموقف , وإنْ كتابته للشعر لها اثر كبير, إن دل على شيء إنما يدل على ان الشعر لا تحوطه شائبة , بل هو واضح في كثير من الأحيان ولا سيما بعد قراءتنا لديوانه الذي صاغته أنامله الشريفة التي تركت

أثرا جميلاً في عالم الشعر , وماله من اثر في المحافل الاجتماعية والبحث عن المعالجات الاجتماعية التي لا بد من الالتفات إليها ونحن في عصر لا تحده حدود الانفتاح .

Abstract:

literature cannot be epistemic thought . Its clear that it has important dimensions in the history of society. Poetry has become an inseparable part of life because it expresses the social reality .

poetry is the poet's responsibility and message through which he calls for virtue and good manners and which carries zeal and selflessness for a progressed society . Poetry is a means to transfer emotion and feeling to the addressees

Mohammad Mahdi Bahir – AL – iloom , the poet , had a very special literary taste and a talent in illustrating words in addition to his high literary perspicacious sense and ability which made his high spirit tend to contemplation .

The poet started from Imam Hussein's (AS) wounds behind which stand the patients . It is the image written by the poet having melting himself in the world of feeling role – playing other's life .

He presented this image through a series of brilliants thoughts .

It has become well – known that he inspired his spirit of writing poetry From Imam Hussein (AS) to be a light illuminating all .

As it has carried wonderful values and literary concept up to the present time . Mohammad Mahdi Bahir Al – iloom , the poet , was the head of hawza and of high positions at that time . So , his writing of poetry has a great impact and this proves that poetry has

no impurity and this is so clear when reading his collections of poems he wrote and which left a very beautiful mark in the word of poetry . It has an impact in the social aspects aiming at treating social problems which have become a must in a world of liberality .

اضاءات حول حياة الشاعر محمد مهدي بحر العلوم

هو السيد محمد مهدي بن مرتضى بن محمد بن عبد الكريم بن مرد بن شاه أسد الله , يرجع نسبه إلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب (ع)

تُعدُ أسرة آل بحر العلوم من الأُسر العلمية العريقة , وقد ظهر من هذه الأسرة إعلام ونوابغ تعاقبوا على خدمة الدين وأسهموا في اتساع الصرح العلمي في مدينة النجف الاشرف .

لقد نشا السيد محمد مهدي بحر العلوم وترعرع في أحضان والدة , وكان يعتني به كثيراً , لما كان ينتظره من مستقبله الطموح , فقد كان يصحبه معه إلى مواضع البحث والدرس.

فاستقى روح الإيمان و واقعيته , كونه من عائلة دينية معروفة , وكان والده السيد مرتضى من العلماء الأعلام الذين يشار إليهم بالبنان , ومرتبة سامية من الورع والتقوى , لذلك اهتم بالعلم منذ طفولته , فوجد فيه النباهة والذكاء والفطنة .

لقد ارتبط السيد محمد مهدي مشواره العلمي بمدينة كربلاء عندما كانت هذه المدينة تمثل مرتعاً خصباً للعلماء والمتعلمين , وانتقل إلى مدينة النجف الاشرف سنة

١١٦٩هـ وعمره ١٥ سنةلينل من بحار علومها وليكمل أشواطه الباقية في الجهاد والاجتهاد [١].

لقب الشاعر بألقاب عدّة أطلقها عليه معاصروه , كانت جميعها مستوحاة من سيرة حياته العلمية , فقد لقب برئيس الأمامية وشيخ مشايخهم وإمام العصر , وعلامة دهره , ومن أكثر ألقابه شيوعاً بحر العلوم [٢] .

إن الأديب الطامح يحاول الإبداع , وهو في دوامة من التفكير , أي كيف له أن يولد مخلوقاً جديدا , ولكن عملية الخلق هذه ليست هي إلا بشرط من ناحية الجمال الذي هو قوام الأدب وروحه , وان المبدعين ساروا على هذه الطريقة .

فالشعر يعد وسيلة لنقل العواطف والأحاسيس من الشاعر إلى المتلقي , أو بصورة أدق , هو صورة لما في نفس الشاعر من عواطف وأحاسيس وأفكار يراد إيصالها إلى القاري أو السامع , وفي الوقت ذاته تحدث أثرا مهما فيهما كالأثر في نفس الشاعر , فضلا عن ذلك أن البيئة التي يعيشها الشاعر هي التي توحي اليه القول ومنها يستجد خواطره وأفكاره ومعانيه فيصوغها في قوالب من الشعر سواء أكانت تلك البيئة طبيعية أم اجتماعية أم فكرية .

إنّ نشأة الشاعر كان لها اثر كبير كونه من بيئة فكرية , وبلا شك رفدت أفكاره وإبداعاته طابع الشعرية وقصائده التي انمازت بكلماتها السهلة والقريبة من نفس القارئ , فهي في سلاسة ممتعة , يتذوقها من كان له باع في هذا المجال.

إنّ غرض المديح قد استأثر بالقسم الأكبر من شعره , فضلاً عن ذلك فقد نظم غرض الرثاء و الاخوانيات , وأجاد في تخميس وتشطير بعض المقطوعات .

مؤلفاته

لقد خلف الشاعر محمد مهدي بحر العلوم مجموعة من المؤلفات , دونتها لنا كتب التراجم والرجال , وجاءت في موضوعات وعلوم مختلفة وهي :-

١- -ديوان شعر .
٢- تحفة الكرام في تاريخ مكة والبيت الحرام .
٣-حاشية وشرح على طهارة (شرائع المحقق الحلي) .
٤- حاشية على ذخيرة الحجة السبزواري .
٥- الدرة النجفية .
٦- الدرة البهية في نظم بعض المسائل الأصولية .
٧- رسالة في تحريم العصير الزبيبي.
٨- رسالة في العصير العنبي .
٩- رسالة في مناسك الحج والعمرة .
١٠- رسالة في حكم قاصد الأربعة في السفر .
١١- رسالة في قواعد أحكام الشكوك.

١٢-رسالة في تحقيق معنى (اجتمعت العصابة على تصحيح ما يصح عنهم) .
١٣- رسالة في انفعال الماء القليل .
١٤- رسالة في الفرق والملل .
١٥- رسالة في الأطعمة والاشربة .
١٦- رسالة في تحريم الفرار من الطاعون .
١٧- رسالة في مناظرته لليهود .
١٨- شرح جملة من أحادي (كتاب التهذيب للشيخ الطوسي).
١٩- شرح باب الحقيقة والمجاز من كتاب الوافية للفاضل التوني .
٢٠- الفوائد الرجالية , يحتوي على عدد كبير من رجال الحديث والرواية من أصحاب الرسول (ص) والأئمة (ع) .
٢١- مشكاة الهداية في الفقه .
٢٢- المصابيح في العبادات والمعاملات من الفقه .

توفي الشاعر محمد مهدي بحر العلوم (نور الله مثواه) وهو في السابعة والخمسين من عمره الشريف في شهر رجب من عام ١٢١٢ هجرية , ودفن في جامع الشيخ الطوسي , ورثاه عدد كبير من طلابه ومنهم الشيخ جعفر كاشف الغطاء , والسيد احمد العطار والسيد محمد جواد ألعاملي صاحب مفتاح الكرامة وغيرهم .

واقعة الطف وأثرها في إثراء شاعرية الشاعر

واقعة الطف تعد قمة من قمم الإنسانية الشامخة , وبيرق من بيارق البطولة والفداء , فكم من الناس يتسلقون قمم الخلود والسمو , وكم من هؤلاء الذين يغيرون قوانين الزمان والمكان ليكونوا ملكا للإنسانية , أولئك هم عظماء الحياة , وإبطال الإنسانية , وذلك ستبقى مسيرة الحياة , تحت الخطى نحوهم , فقد سمعنا عن الملاحم التاريخية في أساطير الأولين وبحثهم عن الخلود وما خلدوا , كون الإمام الحسين (ع) متفرداً في ملحمته التاريخية , فقد خلد بهذا ولا يمكن أن نلج هذا العالم الرحب عالم السمو والشهادة , ولا يمكننا أن نسبر أغوار هذه الملحمة الإنسانية الرائعة دون أن نذوب في بودقة الحسين (ع) , وذلك ما حصل في شعر الشاعر , الذي قدم لنا روائعه الشعرية باكياً وناحباً عن الحسين (ع) , كون الأدب يعد اصدق مرآة لمعاناة الأمة , وفي الوقت نفسه , يعد الأدب جزء من الموقف العام للمجتمع .

إنّ محاولة إظهار معاناة الشاعر من خلال معاناة وشخصية المتحدث عنها , ومقدار معرفة المتلقي لها , تعد من التقنيات المهمة والفعالة في النص الأدبي عموماً والشعري على وجه الخصوص , ومن هنا فان الشاعر استطاع ان يغير الطريق

للمتلقي ويبث له تفاصيل الحدث , فقد احتوى ديوانه على اثنتي عشرة قصيدة , كل منها حوت اثني عشر بيتاً , بحق جده سيد الشهداء أبي عبد الله الحسين (ع)
وقد نجح الشاعر في إبراز اللوعة وإظهار الوجد والحزن في شعره , فيقول :

(البسيط)

شاء من الناس لا ناس ولا شاء — هوت بهم في مهاوي الغي أهواء
دانوا انفاقاً فلما أمكنت فرص — شعت لهم غارة في الدين شعواء [٣]
سلوا عليه سيوفاً كان أرهفها — لها مضاء إذا استلت وإمضاء
شبوا لإطفاء نور الله نار وغي — لولاه ما شبها قدح و إيراء
وزحزحوا الأمر للأذناب عن ترةٍ [٤] — واخروا من به العلياء عليا
حلت بذلك في الإلام قارعةٌ — وفتنةٌ تقرع الأسماع صماء [٥]

إنّ ملامح شاعرية الشاعر واضحة في شعره , فالشاعر لا يستطيع أن يعزل نفسه عن المحيط فهو يتأثر ويتفاعل مع ما يراه وما يحدث وما يزخر به الواقع من نماذج وعادات و سلوكيات ، وردود الفعل التي عادة ما تكون عفوية وسريعة لدى الفرد ؛ ولكنها لدى الشاعر تصبح مدروسة وخاضعة للتحليل والتركيز والتكثيف لمنحها خاصية استثنائية.

لقد كثف الشاعر في رثائه عما مر به سيد الشهداء من عدوان فاحش و ساخر بحق الإنسانية جميعاً ، وقد أراد أعداء الإنسانية أن يطفؤا نور الله ولكن الله أطفأ نورهم في الدنيا والآخرة.

إن ثورة ألطف بحق تعد ثورة اجتماعية كونها تحمل مضامين اجتماعية وإنسانية , فهي ثورة جاءت من أجل تطبيق مبادئ الإسلام , فهي في خدمة الإنسانية وتطبيق مبادئ الشريعة السمحاء , المتمثلة بالعدالة و التضحية والمساواة , وإن هذه المبادئ قد أصابها التحريف والسيطرة على قهر الرعية و ظلمها و الجور عليها , إذ يقول الشاعر : (البسيط)

وطخية(٦) غشت الابصار ظلمتها — عمياء قد عمت الاقطار غماء
عدت على أسد الغابات اضبعها — وفي الرعاء لها قد عاثت الشاء
فالحق مغتصب والإرث منتهب — وفيئ آل رسول الله أفياء
والطاهرون ولاة الأمر تحتكم الـ — ارجاس فيهم بما اختاروا وما شاؤوا
وبضعة المصطفى لم يدع جانبها — حتى قضت وهي غضبى داؤها داء

قد ابدلوا ودّ ذي القربى ببعضهم كأنما ودّهم في النكر بغضاء (٧)

لقد كشف الشاعر في هذا النص , الوظيفة التعبيرية التي تطرب نشاط المتلقي وتوقظ إصغاءه , لحوار لا يتحرج منه الشاعر مادام مصحوباً بمصوغات مقنعة , إذ يجد فيه من مبادلته الحديث مع الأخر ؛ لان الشاعر ((عند كتابته قصيدته يسعى إلى أن يقود قارئه إلى فهم معين للنصّ , وهذا ما اسماه فولفانغ آيرز بالقارئ المضمر , ويقصد به ذلك القارئ الذي يصنعه النصّ لنفسه)) (١٨) بغية تهيئة القارئ على تقبل المال الذي تحدده قصيدته , التي اظهر فيها موقف أعداء الإسلام المعادي للإنسانية والقيم والمنهج وإنسانية البقاء , ففي ثورة الحسين تجسيد لقيم السماء وحفظ المبادئ الحقة , التي بشر بها الرسول محمد (ص) .

لذا تعد ملحمة ألطف شعلة في وجدان التأريخ , فهي بحق ثورة ضد التسلط والانفراد في السلطة دون الأخذ برأي الجماعة بعيداً عن مبادئ الإسلام المتمثلة بالعدل والمساواة وضمان حقوق الناس مما أدى ذلك إلى نشوء خلافات وإشكاليات تفاقمت بمرور الزمن , فوقف الحسين (ع) بكل كبرياء الثوار وسط صحراء العرب القاحلة متمسكاً بإعلاء راية الحق وعدالة قضيته في محاربة الظلم و الفساد .

إنّ استشهاد الإمام الحسين (ع) سيبقى في الوجدان خالداً على امتداد العصور معبراً عن انتصار الدم على السيف , وبذلك احتضنت ارض ألطف مسرح المأساة وسرى الحدث في قرار التاريخ .

ورفرفت أرواح الشهداء من ارض كربلاء إلى عنان السماء القاً يشرق في وجه الإنسانية معلنا للبشرية دروساً في كيفية أن يصون الإنسان مبادئه .

ويقول الشاعر : (البسيط)

كيف السلو ونـار القلب تلتهب والعين حلف قذاها دمعها سرب

ألقي المصاب على الإسلام كلكله فكل منـتسب للـدين مكتـئب (٩)

إذ يفصح الشاعر عما في ذاته من تساؤلات (كيف السلوّ ونار القلب تلتهب) ومنها يبين الموقف اتجاه ما حدث من فاجعة كبيرة في أهل بيت رسول الله (ص) , والألم الذي أصاب الجميع من هذا المصاب الجلل . فضلا عن ذلك يبين الشاعر الموقف الإنساني لهذه الثورة الحسينية لما تحمل من قيم أخلاقية عالية التي جسدها الإمام باستشهاده , كونها تعد أقوى فاعلية واشد أثرا في النفوس وتغيير القلوب ؛ لأنها جاءت لمناصره الضعفاء والمظلومين , لتبقى حية تتأجج في قلوب المحبين , وأن أهدافها تركزت على الإيمان والعدل والحرية , ضد الكفر والفساد والظلم والاستبداد (١٠) ومن هذا اتخذ الشاعر مثيراً لتجربته الشعرية , يستدعي ما يشعر به من المعاناة التي تعرض لها الإمام الحسين (ع) إذ يقول : (البسيط)

كيف العزاء وجثمان الحسين على ال رمضاء عارٍ جريح بالثرى ترِب

والـرأس في رأس ميال يطاف به ويقرع النَّ منه شامت طرب
وأهل بيت رسول الله في نصبٍ أسرى النواصب قد انضاهم النصب
والنـاس لا جازع فيهم ولا وجع ولا حزين ولا مسترجع كئب
فليت عين رسول الله ناظرةٌ ماذا جرى بعده في معشر نكبوا
كم بعده من خطوب بعدها خُطُب لو كان شاهدها لم تكثر الخُطَب (١١)

لقد وجد الشاعر أنّ الروح التي دفعته إلى كتابة الشعر قد استلهمها من الحسين (ع) والتي نهل أسرارها من واقعة ألطف . إنّ في النص تمثل الأزمة الرهيبة التي تكتنفه , فيجد في نفسه فقد حلاوة الأشياء وسلب من أحلامه ورؤاه . ويبدو إنّ الشاعر يستمد وعيه من عذابات الخسران , إذ تتحول المصيبة الكبرى التي حلت بالإمام التي احسّ بها الشاعر بمرارة الحدث , فأخذ الشاعر يتغذى بصوته الشعري حدود الألم الفردي ليعانق به آلام جيل كامل . كون هذه الثورة أصبحت مفصلا من مفاصل التاريخ استمر حضورها وتأثيرها عبر القرون لتمتد إلى يومنا هذا .

الإبعاد الفكرية في تجربة الشاعر الإبداعية

إنّ دوافع المشاهدات اليومية عند الشاعر لها قيمة ،إي أنها تحمل مجموعة من المفاهيم و الرؤى ، و يبدو أنّ الإبعاد التصويرية تمثل رأس هرم تلك الدوافع ، فهو يسترجع بهذه الأبعاد وعيه و مجاهداته الرّوحية ؛ لأنها تعد الرافد الأساس للشعر , و لا يمكن تجاوزها , أو تجاوز إشكالها المتفاعلة مع الوجود و الحياة , فطواعية الإلهام بمحض فطرته الشعرية , تكون هي الأقدر على هذا الفهم و الأقرب إلى صحة التعليل , الذي تجئ به هذه المشاهدات في مجتمع ينظر إلى حركة الحياة و تعاقبها (١٢) , وإنّ النزعة البشرية تدفع بالشاعر إلى تساؤلات عدّة ترمي ببصره إلى بعيد , ليجد نفسه محمولاً للإجابة عنها , سواء أ كانت دينية أم فلسفية أم ميثولوجية ,ضمن إطار الظروف الاجتماعية إنّ التعامل الحاسم في تشكيل الأثر الموضوعي للأبعاد التصورية , إذ هي نسق من النظام الطبيعي , الذي يحاول عبره ان يفك رموز طلاسمه في بيئة تحيط به إذ يمكن للشاعر اختيار الصور والوقائع ((فله أن يحذف منها أو يزيد عليها , وله أن يوجز صورة أو يطيل أخرى زد على ذلك أنّ الصور والوقائع , تفتح مجالاً واسعاً للخلق الفني)) (١٣) و البحث عن أشكال أخرى , تصور قلق الإنسان في الكون , أو في أصل الأشياء , إذ إنّ الشاعر في هذا العالم ,يجد انه محاط دائما بالمظاهر , ومهمته الأساسية هي ان يعلو عليها وان يكون قادراً على فهمها , ومن المستحيل طمس معالم الصراع والتناقضات في هذه المظاهر , وكأنه يلمح الأشياء , لتبدو في إطار أخر(١٤) , فكان ذلك كله أثره المكنون في نفس الشاعر , وتساؤلاته المستمرة عن الطبيعة وما يحيط بها من أشياء , متأملا هذا بقدر معين من الإبعاد النفسية الذي يدفعه إلى ممارسة حياته , على وفق ما

يفصح عما بداخله لتلك التناقضات , تبعاً لتصورات عامة تضع في اعتبارها فاعلية التجربة وخصوصيتها وفرديتها ونمو افقها الشعري [١٥].

إن المتتبع لشعر محمد مهدي بحر العلوم , يجد فيه اثر قيمتها الفنية على نحو لافت للنظر , إذ يبدو الشاعر مع نتاجه الأدبي على درجة كبيرة من التفاعل , والألفة , وإضفاء المشاعر عليها , وهذا ما يفسر المنحى الفنيّ , المعبر عن ذات الشاعر الوجدانية , وهو مقياس أصيل , يتيح وضع التراث الشعري في مكانه الصحيح , على أساس من قيم خالصة من الشوائب الداخلية على جوهر الفن [١٦] .

إنّ الإبعاد الفكرية في تجربة الشاعر الإبداعية , تفسر لنا قدرة الشاعر الفنية واستعداده العقلي والنفسي الذي إنماز به عن غيره , فضلاً عن موهبته بوصفه شاعراً , وهذا أمر لا يمكن إنكاره , فقد ظل يرنو إلى المزيد من السعي المتواصل في سبيل الوصول إلى غايته القصوى , كلما تتراءى له الدنيا , وكلما يلامس شعوره الواقعي تلك الصلابة في مواجهة العوائق القاسية في الفضاءات المختلفة , ولا بد في بحثنا هذا أن نتناول البعد الفكري عند الشاعر والبعد الخيالي ومعطياته الفنية , وهو الهدف الأساس الذي يتوصل به إلى النتاج الإبداعي عند الشاعر .

ولذلك اقتضى دراسة الإبعاد الفكرية من جانبين وهما :

أولا :البعد الفكري

لابد من الوقوف على الإبعاد الإنسانية في شعر الشاعر عن القضية الحسينية و لا سيما واقعة ألطف , من خلال البعد الفكري ؛ لانّ الحياة التي نحياها محكومة بصراع أزلي , أي صراع الخير والشر و صراع الحق والباطل , و من اجل ذلك كله كانت رسالات السماء السمحاء تتوجه إلى الإصلاح , إي إصلاح الأنفس من كل دنس وشر , وإصلاح الأمة جميعاً لتحقيق الحق و العدل ففي قوله تعالى : ((أ فَمَن يعلمُ إنّما أُنزلَ إليك من ربّك الحق كَمَن هو أُعمى إنّما يتذكّرُ أُولوا الألباب)) [١٧] , ومن هنا فالشاعر رسم خارطة الحياة التي أراد أن يبنيها للمتلقي و ما حلّ بآل البيت في واقعة ألطف , فيقول : (البسيط)

صك المسامع من أنبائهم خبر — لا ينقضي حزنه أو ينقضي العمر
ما حل بالآل في يوم الطفوف وما — في كربلاء جرى من معشرٍ غدروا
قد بايعوا السبط طوعاً منهم ورضا — وسيروا صحفاً بالنصر تبتدر
أقبل فإنّا جميعاً شيعةٌ تبع — وكلنا ناصر والكل منتصر
أقبل وعجل قد أخضّر الجناب و قد — زهت بنضرتها الازهار والثمر
أنت الإمام الذي نرجو بطاعته — خلد الجنان إذا النيران تستعر(١٨)

إنّ ثورة العطاء التي أراد الشاعر أنْ يصورها بفكره الثاقب حاول من خلالها العثور على الجوانب التي تعينه من الألفاظ التي حاول الاستعانة بها و تكرارها (أقبل فإنا جميعاً) و (اقبل وعجل) التي عانته لإخضاع الألم السرمدي والذي من خلاله القي عصا ترحاله في طف كربلاء , ليظل جواباً شاخصاً لكل السائرين في طريق الجهاد وصولاً إلى مرافئ الحرية.

لقد بحث الشاعر عن الاستجابة بالتعبير عن كل ما يدور في خلجات نفسه , في وقت رفضت فيه العناصر في نفسه ان تتمثل بعضها بشكل واحد , عن مشاعره إزاء جفاف الروح التي مزج معها صوراً مختلفة من الكلمات متناسقة التي منحت افكارة حياة وروحاً , تتبع مداراتها التي أراد الشاعر لها ان تدخل إلى ذهن المتلقي وتاجج عواطفه وخوالجه , ليتصل معه بوساطة الموت , ومن هنا فانّ الشاعر وظف الشكل الذي أمدة بالمجال لإبراز حذقه في الصياغة , وقد اثأر لديه أشياء كثيرة يودّ قولها في لحظات تفاعله فيقول : (البسيط)

لا رأي للناس الا فيك فأت ولا ... تخش اختلافاً ففيك الأمر منحصر
وآثموه اذا لم ياتهم فأتي ... قوماً لبيعتهم بالنكث قد خفروا
قوماً يقولون لكن ! لا فعال لهم ... ورأيهم من قديم الدهر منتشر
فعاد نصرهم خذلاً وخذلهم ... قتلاً له بسيوف للعدى ادخروا
ياويلهم من رسول الله كم ذبحوا ... ولداً له وكرياتٍ له أسروا
ما ظنهم برسول الله لو نظرت ... عيناه ما صنعوا لو أنهم نظروا (١٩)

لقد عبر الشاعر عن ذلك الألم الذي تعدى حدود صوته , ليكشف عن زيف الأعداء وما يحملونه من الخيانة والغدر , ومنها تحول الخطاب إلى ساحة معركة , يرى الشاعر فيها الأحاسيس القبيحة والمشحونه بالجسد والانتقام والشراهة في الاعتداء على الحرمات المقدسة , فتصاعد صوت الشاعر لينادي فيقول : ((يا ويلهم من رسول الله)) وهذا الخطاب المعلن المحتج على أعداء الإمام الحسين (ع) الذين حملوا معهم الخراب والموت والدمار .

إنّ واقعة ألطف تحمل معاني مؤثرة من قبيل الحرية والإيثار , ومن هنا فإنّ الشهادة الجهادية أسست مدرسة في ارض كربلاء مدرسة الحسين (ع) , ذلك العاشق المفتون بالحقيقة الإلهية المقدسة , وجمالها الأزلي , فالبعد الفكري عند الحسين (ع) , فجر بركاناً ضد الظلم والجور والاستكبار في كل زمان ومكان , اذ امتد القول عند الشاعر , فيقول :

مهما نسيت فلا انسى الحسين وقد ... كرت على قتله الافواج والزمر
كما قام فيهم خطيباً منذراً وتلا ... آياً فما اغنت ألآيات والسور

قال انسبوني فجدي احمدٌ وسلوا ما قال فيَّ فلم يكذبكم الخبر
دعوتموني لنصري اين نصركم وأين ما حظت الاقلام والزبر (٢٠)

لقد وقف الشاعر شامخاً بقوله (مهما نسيت فلا انسى الحسين) وهذا الموقف يصوّب قوّة اندفاعه الفكري نحو تسجيل ذلك الاندفاع نحو ثورة الحق , فتتجاوز طاقته الفكرية في عمق الانفعال و الانشغال والقلق بشأن ما يرى من أحداث التي فاقت الفكر العقلاني , فجاء في قوله:

هل من مغيثٍ يغيث الآل من ظمأ بشربة من نميرٍ ما لها خطر
هل راحم يرحم الطفل الرضيع وقد جف الرضاع وما للطفل مصطبر
هل من نصيرٍ محام أو أخي حسب يرعى النبي فما حاموا ولا نصروا
تلك الرزايا لو أن القلب من حجرٍ أصمَّ كان لأدناهن ينفطر (٢١)

لقد أخذ الشاعر استعمال حرف هل و التي تكررت في النص لما لها من جوانب فقوله ((هل من مغيث)) , ((هل راحم يرحم)) , ((هل من نصير)) , تعبير عن الإغاثة لتتزاحم الكلمات هول الفاجعة وما يعاني منه آل بيت رسول الله من ظلم شديد , تعدت حدود المعقول , فشغلت الأبيات عنف الرؤية التي تصاعدت لتحرك أصحاب القلوب الحية اتجاه الأزمة الحادة في التعامل الإنساني أنّ الصراع الفكري وصل إلى المحك الحقيقي للنمطين في مكان وزمان حدده الله , لكي يرسم نقطة ارتكاز وجذب جديدة بعد انهيار وتحطم نقطة الارتكاز والجذب الرسالية على يد مريدي الخط المادي الدنيوي وان نقاط الالتقاء أو التقاطع تنمو ما بين الأشياء عندما توجد نقاط إشعاع تنطلق من قبل الأفكار الأساسية لتلك النقاط التي تستند إليها تلك التقاطعات أو الالتقاءات , وعندما يريد المرء إن يذهب إلى التوجس من أفكار معنية يحاول أن يسقط عليها عمليات انزياح فكرية تدفع بها إلى غير دلالاتها المجازية , ومن هنا نؤكد أنّ فكر الحسين (ع) وثقافته وعلومه الإلهية الرسالية , انه النقاء والصفاء الذي يرتبط بالسماء والحبل المتين , وان هذا الفكر قائم على ثوابت عقائدية وليست متغيرات يستطيع الزمن أن يتعامل معها , لان الحسين (ع) شع من حجر الرسالة , وتغذى من فم الرحمة , ونهل من عبق الهدى , فمن هذا استلهم الشاعر عطائه العلمي ومفرداته السلسة ليغتنم فرصة التألق من هذا الرحب الذي لا تحده حدود بل أزداد أكثر تألقاً بإبداعه ونهل من سماته الفنية ليسطر تلك المعاني في رحابه .

ثانياً:البعد الخيالي و معطياته الفنية

إنّ للبعد الخيالي أهمية كبيرة في النص الشعري , كونه متصلاً بالدراسات الأدبية والنقدية و البلاغية , فمفهوم الخيال عند العرب مختلفاً عما تبناه النقاد الغربيون و في مقدمتهم الناقد الانكليزي (روبين) , الذي عرّفه على إنه ((صورة للتجربة تعمل على تقديم الحقيقي و غير الحقيقي في خليط أو مزاج غير محدد العوالم , يقوم الفهم بعد ذلك بترسيب الحقيقة منه))[٢٢] , فهو يتصف بمهمة ذاتية متعلقة بالمبدع , كون الخيال متعلقاً يملكه المبدع التي تثير طرائق الإدهاش الفجائية المتنوعة [٢٣] , في حين عرّفه سيد قطب , في قوله ((تحسب أن الخيال هو صلة مابين الإنسان القاصر و الحقيقة المحجبة , التي تدق على الإفهام , فيثبت الخيال ليقرب هذه الحقيقة))[٢٤] وبعبارة أخرى يمكن القول أنها المثلى الخالقة للإبداع الأدبي المتأتية من قدرة المبدع على تذويب خصائصها الفنية بطريقة إيحائية في متن المضمون النصي , كونها مرتبطة بذاتية المبدع وإمكاناته القادرة على الخلق الإبداعي , في حين أنّ التخييل يُعدُّ ((مصدراً من مصادر شعرية الصورة , ويتقنع عادة خلف أدوات الخطاب المتنوعة الموجهة إلى منطقة التلقي)) [٢٥] وهذا يتعلق بقدره المتلقي على كيفية استقراء النصوص الإبداعية , المستشارة من الرفد التصويري الذي يمكن للشاعر من إظهار حيوية المؤثرات الخارجية بعد أن أعاد إنتاجها برؤية فنية استطاعت الولوج إلى عمق التفاعل المحرك لآلية الإنتاج والتلقي , ففي قول الشاعر :(البسيط)

ذادوا عن الماء ظماناً مراضعه — من جده المصطفى الساقي أصابعهُ
يعطيه إبهامه آناً واونةً — لسانه فاستوت منه طبايعه
لله مرتضع لم يرتضع ابداً — من ثدي أُنثى ومن طه مراضعه
سر به خصه بارية اذ جمعت — وأودعت فيه عن امر ودايعه
غرس سقاه رسول الله من يده — وطاب من بعد طيب الأصل فارعه [٢٦]

في النص حوار بين شخصين , الإمام الحسين (ع) والشاعر و لان القصيدة تعد ذات بناء كلاسيكي , فقد جاءت خطابية وهذه الموضوعية الظاهرية , لم تخفيها ذاتية الشاعر فقد جاءت الذاتية عبر بحث صاحب النص عن الشخصية الحقيقية ' و حقيقة أمرها ' و يبدو أنّ قيمة الخيال الشعري في النص وسيلة إبداع إبلاغي , إذ تمكن الشاعر بوساطتها من تصوير رؤاه , لتبقى حضورية الألق و الانبثاق حاضرة في متن المشهد الإبداعي .

إنّ القوم ضاع حسهم التحريري بين الطمع و الخوف , فقد هاجموا معسكر الأحرار فأفزعوا الأطفال و النساء و منعوا عنهم الماء , فوصلت الى الطفل الرضيع لم يرتوي من ماء الفرات , لينتظر جده يسقيه من يده الشريفة.

لقد وقف الكثير بإجلال و إكبار و اندهاش , ولاسيما الشعراء لما يتسمون به من إحساس مرهف , فقد ترك لنا الشعراء أحاسيسهم الرقيقة التي تنم عن فرط تأثرهم البالغ في عمق واقعة ألطف.

فالشعر الحسيني يعد خزانة كبرى , إذ وضع الشعراء الكبار قصائدهم الممزوجة بالأسى ومشاعر اللوعة لما عانى أهل البيت من ظلم الطغاة والمتجبرين .

إنّ ما خرج من اجله الحسين (ع) لا يتحدد بمكان أو زمان معين , بل كان الحسين يمثل صرخة المستضعفين ضد الطغاة والانحراف والظلم , وكانت هذه الثورة نقطة تحول في التاريخ الإسلامي والبشري , وقد إعطانا مفهوماً جديداً للتضحية من اجل القيم العليا السامية التي جسدها بخروجه من المدينة إلى كربلاء .

إنّ محاولة إظهار معاناة الشاعر عن طريق معاناة الشخصية المتحدّث عنها , ومقدار معرفه المتلقي لها تُعدُّ من التقنيات المهمة والفعالة في النص الأدبي عموماً ,والشعري على وجه الخصوص , لذلك وقف الشاعر ليتفاعل مع الإحداث الحسينية التي وقف بإجلال وإكبار واندهاش فيقول : (البسيط)

الله اكبر ماذا الحادث الجلل — فقد تزلزل سهل الأرض والجبل
ما هذه الزفرات الصاعدات أسى — كانها شعل قد مدها شعل
ما للعيون عيون الدم جاريةٌ — منها تخدُّ خدوداً حين تنهمل (٢٧)

ويقول :

قامت قيامة اهل البيت وانكسر — سفن النجاة وفيها العلم والعمل
وارتجت الارضُ والسبع الشداد وقد — اصاب أهل السموات العلا الوجل
واهتز من دهش عرش الجليل فلو — لا الله ماسكه اهوى به الميل
جلَّ الإله فليس الحزن بالغه — لكن قلباً حواه حزنه جلل
قضى المصاب بان تقضي النفوس له — لكن قضى الله أن لا يسبق الأجل (٢٨)

إنّ استشهاد الإمام الحسين (ع) وأهل بيته الأطهار كان له اثر كبير في تاريخ الأمة واستمر هذا التأثر في وجدان الأمة منذ يوم استشهاده إلى يومنا هذا , وما زال الحسين ملهما ومعلما , فقد كثف الشاعر في نصوصه بطولة الحسين وتضحياته وحكمته وحنكته وصبره وإيثاره , فصاغ منها ملاحم تتغنى بها الأجيال وتستلهم الشجاعة ليغيروا من واقع زمنهم المتردي .

لقد أخذت نصوص الشاعر تتعدى قيمة الحدود ((لبناء قواعد جديدة قادرة على تحقيق عنصر الإدهاش والمفاجأة)) (٢٩) فهي بعمومها تشغل مكانه خاصّة من حيث عنف الرؤية التي يعبر بها عن أزمة الروح التخيلية , ومن حيث الدقة المدهشة في

تصوير اللحظات المظلمة وحالات النفس المختلفة . لقد مضى الشاعر في سرد الوقائع الرهيبة ، والألم يعتصره ، فيتناغم مع صرخات الحسين الظامئ ، حتى يصل إلى مرحلة التشخيص .

و انّ من يتتبع ديوان الشاعر يجد فيه عدة صور تحمل في طياتها فنون أدبية ارتقى بها في قصائده التي انمازت بكلماتها المعطرة بقريحه الشاعر وسهولة أسلوبها , فهي ممتعة , يتذوقها المتلقي , كون الشاعر كان له باب في هذا المجال , فضلا عن ذلك إنّ شعره يسير باتجاه المدرسة التقليدية المحافظة في بناء القصيدة العربية العمودية , إذ انمازت بسمات الشاعرية الخاصة بين أشعار الآخرين , فقد استخدم البحر البسيط في قصائده , كون هذا البحر منفتح ويعطي متسع من الحرية والإبداع وتزاحم الكلمات في جمالياتها الفنية , فضلاً عن ذلك التقرّب من القصد الذي تسامي الفكرة حتى الذروة , ليحقق ما يروم إليه الشاعر في قوله وتتوضح الرؤيا بصورة كاملة لدى المتلقي . ومن الملحوظ في ديوانه إذ حوت اثني عشر بيتاً في كل قصيدة وقد تبين أنّ عدد قصائده اثني عشرة قصيدة , وهذه القصائد تركزت على رثاء سيد الشهداء (ع) , والتي برزت المشهد الحزين في شعره . ومنها اخذ هذا المنحى بعداً في النهضة الأدبية في العراق التي شهدها النجف الاشرف في العطاء والإبداع . وإنّ هذه المنظومة إن دلت على شئ إنما تدل على تمكُّن الشاعر من تطويع المفردات لبيانه العذب . إن للفكر في الشعر الديني يشكل اثراً بارزاً في شعر الشاعر الذي حفل ديوانه الشعري بهذا اللون من الشعر . وإنّ اهتمامه بالدين بسبب رد الفعل الذي أحدثه إحساسه بالظلم وشعوره بالاضطهاد والحرمان , فوجد من هذا اللون متنفساً ليعبر به الشاعر عن الواقع المرير [٣٠].

الهوامش

(١) ينظر : مقدمة كتاب الفوائد الرجالية , محمد صادق بحر العلوم , مطبعة الأدب , النجف , ١٣٨٥ هـ : ٢٦/١ – ٣٣ .

(٢) ينظر: ديوان السيد محمد بحر العلوم , جمع : محمد صادق بحر العلوم , تحقيق : محمد جواد فخر الدين , حيدر شاكر الجد , المكتبة الأدبية المختصة , النجف الاشرف , ط١ , ٢٠٠٦ م : ٢٣ .

(٣) شعواء : غارة شعواء , أي حاشية متفرقة , ينظر : مختار الصحاح : ٣٢٠/١ .

(٤) ترةٍ : الثأر , ينظر : لسان العرب , لابن منظور : ٢٧٤/٥ .

(٥) الديوان : ٤٠.

(٦) طخيّة : قطعة مستديرة تسد ضوء القمر وهي السحابة الرقيقة , ينظر : كتاب العين , الخليل بن احمد الفراهيدي , تحقيق : د. مهدي المخزومي , د. إبراهيم السامرائي , دار الرشيد , بغداد , ١٩٨٢ م , ٢٩٤/٤ .

(٧) الديوان : ٤١ .

(٨) النص وإشكالية المعنى , عبد الله القصيبي , الدار العربية للعلوم , بيروت , ط١ , ٢٠٠٩ م : ١١ .
(٩) الديوان : ٥١ .
(١٠) ينظر : ثورة الحسين , ظروفها الاجتماعية وأثارها الإنسانية , الشيخ محمد مهدي شمس الدين , المؤسسة الدولية للدراسات والنشر , بيروت , ١٩٩٦ م : ١٥٠ .
(١١) الديوان : ٥٢-٥٣ .
(١٢) ينظر : المرئي والاّ مرئي في الشعر العربي القديم , عبد الرزاق خليف محمود , دار الشؤون الثقافية العامة , بغداد , ط١ , ٢٠١٣ م : ٧٠ .
(١٣) مواقف في الأدب والنقد , د. عبد الجبار المطلبي , منشورات دار الرشيد للنشر , بغداد , ١٩٨٠ م : ٥٧ .
(١٤) ينظر : مفهوم الشعر , دراسة في التراث النقدي , د. جابر احمد عصفور , بيروت , ١٩٨٢ م : ٣٠٦ .
(١٥) ينظر : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي , د. جابر احمد عصفور , دار الثقافية , القاهرة , ١٩٧٤ م : ١٤٥ .
(١٦) ينظر : قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر د. بنت الشاطى , دار المعارف , القاهرة , ط٢ , ١٩٧٠ م : ٢٧ .
(١٧) سورة الرعد : أية : ١٩ .
(١٨) الديوان : ٦٨-٦٩ .
(١٩) الديوان : ٦٩-٧٠ .
(٢٠) الديوان : ٧٠ .
(٢١) الديوان : ٧١ .
(٢٢) مبادئ الفن , روبين جورج كولينجو , ترجمة : احمد حمدي , الدار المصرية , القاهرة : ٣٥٦ .
(٢٣) ينظر : الخيال في الفلسفة والادب والمسرح , د. علي محمد هادي الربيعي , دار صفاء للنشر , عمان , ٢٠١٢ م : ١٣١ .
(٢٤) مهمة الشاعر في الحياة , سيد قطب , منشورات الجمل , ١٩٩٦ م : ٣٢ .
(٢٥) مرايا التخييل الشعري , محمد صابر عبيد , دار النشر للطباعة , عمان , ط١ , ٢٠١٢ م : ٣٢ .
(٢٦) الديوان : ٧٣ .
(٢٧) الديوان : ٧٥-٧٦ .
(٢٨) الديوان : ٧٦ .
(٢٩) الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر : ١٣٣ .
(٣٠) ينظر : الفكر في الشعر العراقي الحديث , د. حافظ محمد عباس , دار الفراهيدي للنشر , بغداد , ط١ , ٢٠١٤ م : ٢٧٨

المصادر والمراجع

القران الكريم
١- الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر (جيل الستينيات) , د. زينب هادي حسن دار الفرهيدي , بغداد , ط١ , ٢٠١١ م
٢- ثورة الحسين , ظروفها الاجتماعية وأثارها الإنسانية , الشيخ محمد مهدي شمس الدين , المؤسسة الدولية للدراسات والنشر , بيروت ١٩٩٦ م
٣- الخيال في الفلسفة والأدب والمسرح , د. علي محمد هادي الربيعي , دار صفاء للنشر , عمان ٢٠١٢ م
٤- ديوان السيد محمد مهدي بحر العلوم , جمع , محمد صادق بحر العلوم , تحقيق : محمد جواد فخر الدين , و حيدر شاكر الجد ،النجف الاشرف ، ط١ , ٢٠٠٦ م .
٥- الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي , د. جابر احمد عصفور , دار الثقافة , القاهرة ١٩٧٤ م .
٦- الفكر في الشعر العراقي الحديث , د. حافظ محمد عباس , دار الفراهيدي للنشر , بغداد , ط١ , ٢٠١٤ م .
٧- قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر , د . بنت الشاطئ , دار المعارف , القاهرة , ط ٢, ١٩٧٠ م .
٨- كتاب العين , الخليل بن أحمد الفراهيدي , تحقيق :د. مهدي المخزومي و د.إبراهيم السامرائي , دار الرشيد , بغداد , ١٩٨٢ م .
٩- لسان العرب , للعلامة ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم , ابن منظور الانباري (ت ٧١١ هـ) , دار صادر للطباعة والنشر , ١٩٦٨ م .
١٠-مبادئ الفن , روبين جورج كولينجود , ترجمه : احمد حمدي , الدار المصرية , القاهرة .
١١-مختار الصحاح , محمد ابن أبي بكر الجوهري , تحقيق محمود خاطر , مكتبة لبنان.
١٢-مرايا التخييل الشعري , محمد صابر عبيد , دار النشر للطباعة , عمان , ط١ , ٢٠١٢ م .
١٣-المرئيُّ و إلا مرئيُّ في الشعر العربي القديم , د. عبد الرزاق خليفة محمود , دار الشؤون الثقافية العامة , بغداد , ط١ , ٢٠١٣ م ,
١٤-مفهوم الشعر , دراسة في التراث النقدي , د. جابر عصفور , بيروت , ١٩٨٢ م .
١٥-مقدمة كتاب الفوائد الرجالية , رجال السيد بحر العلوم , محمد صادق بحر العلوم , مطبعة الآداب , النجف , ١٣٨٥ هـ .
١٦-مهمة الشاعر في الحياة , سيد قطب , منشورات الجمل , ١٩٩٦ م .
١٧-مواقف في الأدب والنقد , د. عبد الجبار المطلبي , منشورات دار الرشيد للنشر , بغداد , ١٩٨٠ م .
١٨-النص وإشكالية في المعنى , عبد الله محمد القصيبي , الدار العربية للعلوم , بيروت , ط١ , ٢٠٠٩ م .